البيئة في التراث الحلبيّ اللامادّيّ
دراسة دلالية في موسوعة حلب المقارنة لمحمّد خير الدّين الأسديّ
الهنهونات (أنموذجًا)

د. سويس حميد البطمان

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة حلب

الملخّص

يرتكز هذا البحث على دراسة دلالية تطبيقية، تعرض فنًّا من فنون القول الشعبيّة الشفاهيّة (الهنهونة الحلبيّة)، تناثر على صفحات (موسوعة حلب المقارنة) لمحمّد خير الدين الأسدي بأجزائها السبعة، لم يتنبّه إليه غيره من المبدعين المسايقين. وإذا كان الغرض من هذا البحث الكشف عن أسرار التراث الثقافي الحلبي اللامادّي المدوّن باللهجة الحلبيّة الدارجة، فإنّ الوعي اللغوي المعاصر يوجب استعادة قراءته في هذه الموسوعة، استنادًا إلى معطيات علم اللغة الحديث، الذي يحفل بنظريات كثيرة كنظرية السياق، ونظرية الحقول الدلالية التي تعتمد اعتمادًا كبيرًا على فكرة الإحصاء، وظاهرة التكرار وغيرهما. وبما أنّ البحث متّجه أصلًا إلى دراسة البيئة الحلبيّة بأبعادها الاجتماعية، والدينية، والاقتصادية، والطبيعية، والثقافية، والسياسية، كان لزامًا التوقّف عند اللهجة الحلبيّة التي احتضنت هذا اللون من الأدب الشعبي، بغية النظر إليها نظرة لغوية دلالية وفق منهج وصفي، ودرس تطبيقي تحليلي.

ورد البحث للمجلة بتاريخ / /

قبل للنشر بتاريخ / /

المقدّمة.

يتبوأ التراث الثقافي اللامادّي مكانة رفيعة في الدرس الحديث. فقد أولاه الباحثون المحدثون عنايتهم الفائقة، لأنه مصدر ثرّ من مصادر الإرث الشعبي، وجزء هامّ من الذات الاجتماعية، يتحرّك في يوميّات الشعوب، ومشاعرها، ومثلها العليا، ولهجاتها المحكيّة، وأساليب تعبيرها، وعاداتها، وتقاليدها، واتجاهاتها العقلية التي تختزن كما كبيرًا من جذور التصوّرات والمعتقدات الشعبية التي تفسّر فلسفة الناس، ومنطقهم في مناقشة الأمور، ومواقفهم، ومفاهيمهم، وآراءهم في مفردات الحياة، منذ الماضي البعيد وعبر الأجيال المتعاقبة.

مع تأكيد هذه الحقيقة، يزداد الوعي المعاصر بأنّ تتبّع التراث الثقافي اللامادّي لشعبٍ مّا يكشف عن مأثورات شعبية متنوّعة بتنوّع البيئات، ومتعدّدة بتعدّد المواقف والمناسبات. فثمّ من يذهب إلى ضرورة تقصّي أنماط حياة الشعوب من أجل فهم شخصيتها الإنسانية، وما تحفل به من إمكانات إبداعية تتفرّد بها. وهذا يستوجب – من جملة ما يستوجب – تتبّع لهجاتها المحكيّة انطلاقًا من المفهوم السائد الذي يرى أنّ اللغة – واللهجة منها – تشكّل في بُعديها المنطوق والمكتوب أهمّ وسائل التواصل الإنساني، لأنها تحمل طابع الحياة التي يحياها متكلّموها، وتمثّل ألوانًا من العلاقات المختلفة، وتحيل على حقيقة حتميّة هي المجتمع في إطار عصر محدّد [1].

البحث.

تبرز في المسار الآنف نماذج عربية قديمة تؤكّد الصلة الوثيقة بين السلوك اللغوي، ومجمل مظاهر الحياة. فقد حاول الجاحظ (ت 255 هـ) أن يستعيد البيئة العامّيّة بملاحتها، وظرفها، وأعرافها، وتقاليدها، فيروي ما يثير الضحك والمرح في لهجات أولئك العامّة [2].

---

(1) للاستزادة ينظر لعيبي هادي، 2009 م- اللسانيات الاجتماعية عند العرب. عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، الطبعة الأولى، ص 146 – 160. **وبوقرة** نعمان، 1430 هـ – 2009 م- الألسنية اتجاهاتها وقضاياها الراهنة. عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، الطبعة الأولى، ص 258.

(2) ينظر 1337 هـ – 1948 م- البيان والتبيين. تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1 : 73-74. وللتوسّع ينظر نفسه، 1: 13، و62 – 63، و144 – 146.

ولا يُعرف للجاحظ أو لغيره سوى كتاب (البخلاء) "وصف الحياة الاجتماعية في صدر الدولة العباسية كما وصف. فقد أطلعنا على أسرار الأسر، ودخائل المنازل، وأسمعنا حديث القوم في شؤونهم الخاصّة والعامّة، وكشف لنا عن كثير من عاداتهم، وصفاتهم، وأحوالهم" [1].

ولا يغيب عن الأذهان ماأشار إليه ابن جنّي (ت 392 هـ) في كتابه (الخصائص)، في أثناء حديثه عن مشاهدة الحال لدى فئات مختلفة من عامّة الناس، من الحمّالين، والحمامِيّين، والوقّادين، وسياسة الدوابّ القائمين عليها والخادمين لها [2]. كما لم يغب ما قدّمه ابن مكّي الصقلّي (ت 501 هـ) في كتابه. (تثقيف اللسان وتلقيح الجنان)، الذي يعدّ مصدرًا أصيلًا للّهجات، والمستويات اللغوية التي سادت المجتمع الصقلّي آنذاك بكل طوائفه العامّة والخاصّة [3]. تبدو هذه الكتب وغيرها ممّا لم يذكر في عجالة هذا البحث خيرَ منهل لمعرفة اللهجات الخاصّة وموقف المفكّرين منها [4].

هذا ينسحب على دراسة اللهجة الحلبيّة، التي تسعى إلى الوقوف على الفضاء البيئي الذي يحيط بالمجتمع الحلبي، وإلى فكّ شيفرات هذا المجتمع المخصوص بثقافة معيّنة، من خلال النظر في مقوّماته البيئية الاجتماعية، والدينية، والاقتصادية، والسياسية، والثقافية، وغير ذلك.

وخير نموذج معاصر ما قدّمه محمد خير الدّين الأسدي في موسوعته المعروفة بموسوعة حلب المقارنة، التي احتلّت مكانتها بين الدراسات المقارنة، لأنّها

---

(1) 1413 هـ – 1993 م– تحقيق علي الجارم وأحمد العوامري، الدار العالمية، بيروت، الطبعة الأولى، مقدّمة المحقّقَيْن، 1 : 6.

(2) 1371 هـ – 1952 م– تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1: 246.

(3) 1386 هـ – 1966 م– تحقيق عبد العزيز مطر، دار المعارف، مصر، ص 242، وما بعدها.

(4) إلى جانب هذه الكتب، نكتفي بذكر بعض الكتب الحديثة، مرتّبة ترتيبا زمنيا بحسب تاريخ ولادة مؤلّفيها ووفاتهم:

- واقي علي عبد الواحد، 1971 م– اللغة والمجتمع، مصر.
- أنيس إبراهيم، 1965 م– في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، الطبعة الثالثة.
- السعران محمود، 1958 م– اللغة والمجتمع رأي ومنهج، المطبعة الأهلية، بنغازي.

محاولة جادّة في الكشف عن الأصول اللغوية التي أسهمت في تكوين اللهجة الحلبيّة، وعن العلاقة المتبادلة بينها وبين تلك الأصول. وتأتي أهمّيّتها من كونها خطوة رائدة في الحفاظ على الإرث اللغوي الذي يحفل بمفردات هذه اللهجة، وتعابيرها من الحِكَم، والأمثال، والأقوال، والشذّيات، والمواويل، والمَعْنّى، والهنهونات، ومَداغاة الأمهات لأطفالهن، وغير ذلك من فنون القول التي جاءت مضفورة مع أواصر الحياة الاجتماعية بوقائعها الشعبية، وطرائقها في الطعام، واللباس، والأفراح، والأتراح. إلى جانب غنى الموسوعة بالأخبار العلمية، والمعلومات الثقافية، والتاريخية، والجغرافية. في هذا كلّه متعة للنفس القارئ، وفائدة لعقله. ولو لم يفعل الأسدي هذا لَطواه الزمن، وتعذّر على المرء الحصول عليه[1].

ليس غريبًا أن يخصّ عاشقُ حلب مدينته بجلّ الاهتمام وفائق العناية. فقد أحبّها وعاش في أحيائها، وتنقّل بين أزقّتها مفتونًا بجميع ما فيها. فهي المدينة العظيمة ذات التاريخ الممتدّ في جذور الزمن، وهي مهد للعديد من الحضارات التي قامت على أرضها، بفضل موقعها الجغرافي والاقتصادي الذي جعل منها موئلًا هامًا للتجّار، وموطنًا لكثير منهم، على اختلاف مآكلهم ومشاربهم وعاداتهم وتقاليدهم، وما هذا إلّا إسهام حقيقي في التنوّع السكاني، الذي ترك أثرًا جليًا في نمط الحياة بكلّ أطيافها الاجتماعية، والدينية، والاقتصادية، والسياسية، والثقافية، وغير ذلك. وعلى الرُّغم من محافظة الحلبيّين على خصوصيّتهم، فإنّهم لم يستعصوا على التأثّر بهذا التنوّع، ذلك لأنّ أصالة طبائعهم تفرض عليهم احترام الغريب، وإكرام الضيف، وحسن الجوار.

هذا أحد العوامل المشجّعة على التأثير في لغة الحديث اليومية، المتمثّلة باللهجة الحلبيّة، التي تشكّلت موسومة بسمات الزمان والمكان، واغتنت بفضل تحمّلها مظاهر التطوّر الإنساني والحضاري منذ عهد قديم. ومن الطبيعي أن تكشف الكلمات

---

(1) ينظر الأسدي محمد خير الدين، 1408 هـ - 1987 م- موسوعة حلب المقارنة. أعدّها للطباعة ووضع فهارسها محمد كمال، معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب، حلب، الطبعة الأولى، توطئة محمد كمال، (ج - د).

المستعملة في البيئة الحلبيّة عن الأبعاد الحقيقية التي تحكم التطوّر الاجتماعي، وعن التفاعلات الإنسانية في حقبة محدّدة من تاريخها. لهذا تبدو الحاجة ملحّة إلى معايشة كلمات اللهجة الحلبيّة في معجم واحدٍ من أقدر الذين استعملوا الكلمة لتصوير البيئة الحضارية التي أوجدت مفردات هذه اللهجة في حلب، وأتاحوا فرصة التعرّف إليها.

وبما أنّ الاهتمام بالتراث الثقافي غير المادّي يشهد تحوّلات مهمّة تتوجّه في أساسها إلى استئناف النظر فيه، من أجل فهم المجتمعات التي تؤثّر في مظاهر الحياة المختلفة تأثيرًا مباشرًا، فإنّ قراءة ما خلّفه أسلافنا الحلبيّون من تراث ثقافي بات أمرًا ضروريا، انطلاقًا من لغة النصّ الكلامي الذي تظهر فيه عناصر ذات تأثير كبير في توجيه المعنى، وأجواء تكسب كلماته ظلالاً مؤقّتة تكوّن قيمتها التعبيرية.

يبرز ههنا لون شعبي شاع على ألسنة النساء الحلبيّات، ينشدنه في الأفراح خاصّة، يتناول أهلَ الفرح وكلّ من يشارك فيه. هذا اللون هو (الهنبونة الحلبيّة)، التي خصّص لها ابنُ حلب البارّ حيّزًا من موسوعته المميّزة.

فالهنبونة فنّ من فنون القول الشعبية، وُلد من رحم التاريخ، وتنوقل مشافهة عبر نساء حذقن منه، وأضفن إليه، وغيّرن فيه بحسب رغباتهن وقدراتهن. وقد حملهن وعيُهن أن يضمّنها أفكارًا وقيمًا تتناسب والعقلية السائدة سعيًا منهن- بقصد أو بغير قصد – إلى ترسيخها واستمراريتها. وعلى الرُّغم من شعبية الهنبونة الحلبيّة، فإنّها تتمتّع بقوّة التأثير في نفوس قائلاتها وسامعيها على حدّ سواء، لأنّها ترتبط بمؤسّسة اجتماعية، وتعبّر عن فكر شعبي ذي ملامح حيانية، ومعايير أخلاقية وسلوكية خاصّة.

ولدى العودة إلى بعض المعاجم العربية (قديمها وحديثها) [1]، تبيّن أنّها تكاد تخلو من مادّة (هنبن)، إلّا أنّ الأسدي أورد المادّة المعجمية (هنبونة) في موسوعته وشرحها بقوله: "أطلقوها على رباعية في لهجتهم، تقولها امرأة في مناسبة فرح

---

(1) مثل: العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ)، ولسان العرب لابن منظور(ت711هـ) والقاموس المحيط للفيروز آبادي(ت817هـ)، وتاج العروس للمرتضى الزبيدي(ت1205هـ)، والمعجم الوسيط لمجموعة مؤلّفين محدثين من أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

كالعرس، والطهور، والنّشيدة، والحجّ، وسائر النساء يزغردن. والجمع هنهونات وهناهين" [1]. ولا يجزم الأسدي في أصلها برأي، ويكتفي بعرض وجهين اثنين: فإمّا أن تكون مبنيّة على (فعفولة) من الفعل العربي (هنّأ). أو أن تكون من (هنّيانا) السريانية بمعنى التهنئة الصغيرة [2]. ورأى بعضهم أنها من فعل (هنْهَنَ) العامّي، وفصيحه (هنْهلَ)، يقال: هنهل الصوتَ، إذا رجّعه. وأغلب الظنّ أنّ الحلبيّين حذوا حذو أجدادهم العرب القدماء، فأبدلوا اللامَيْن الأولى والثانية نونَيْن فجاءت على (هنْهَنَ) [2]. وقد يعطى هذا الفعل ببنيته (هن/هن) صيغة حكاية، فلعلّه أخذ من حكاية صوت (ها) في مستهلّ هذا الفنّ، كما سمّوا قلب الهمزة عينًا في لغة بني تميم (عنعنة).

تتصدّر الهنهونة الحلبيّة لازمةُ (هاها)، أو (أها)، أو (آها) [3] تلفت انتباه السامعين إلى ما بعدها، وتشدّهم إليه. وتنتهي بحكاية زغردة النساء (لي لي ليش) التي تتشكّل نتيجة رفع الأصوات وترديدها في حلوق النساء وألسنتهنّ، وهي المعروفة بـ(الزّلْغوطة) في العامّية الحلبيّة. وأيّة امرأة تستطيع الزغردة، بيد أنّ الإتقان يبدو لدى بعض النساء اللواتي تمتلك أصواتًا قويّة وجميلة، تضفي على الزغرودة سحرها، فتثير أجواء الفرح، وتدخل البهجة والسرور إلى القلوب.

أثبت الأسدي في موسوعته مجموعة من الهناهين باللهجة الحلبيّة، بلغ عددها (25) خمسًا وعشرين هنهونة، جاءت موزّعة على (92) اثنتين وتسعين مادّة معجميّة ضمّتها الأجزاء السبعة كاملة. وقد بدا الأمر طبيعيًا، لأنّ المؤلّف ساق الهنهونة الواحدة عددًا من المرّات، لتكون في كلّ مرّة شاهدًا على مادّة معجميّة تختلف عن غيرها. فهنهونة (عريسنا الشبّ!..) وردت عشر مرّات في عشر موادّ (الأبّ، والبرج، والبنّ، والحبّ، والخبّ، والشبّ، والطّولة، والعريس، والفبّ، وناس)، وهنهونة

---

(1) ينظر الأسدي، موسوعته. مادّة (الهنهونة)، 7: 371. إن كانت على (فعفولة) فلا بدّ أن تكون (هنهونة).

(2) ينظر عبد المنعم عبد العال، 1972 م- معجم الألفاظ العامّية. مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، مادّة (هنهن).

(3) ينظر الأسدي، موسوعته. مادّة (هاها)، 7: 346. و(أها)، 1: 315.

(يابو عريسنا!) وردت تسع مرات في (الأبّ، والحياة، وذنبك، والذهب، والراية، ورقص، والساقية، والسبْع، والكنّة). وكذا الأمر في هنهونة (ياستنا ياعروس!..) التي جاءت في إحدى عشرة مادّة (الأبّ، وأجاويد، والأم، والبنت، والبيت، والستّ، والسّعْد، وسقى، وضاع، والعروس، وعلّيْة). هذه هي حال سائر الهنهونات، زِدْ على ذلك تكرارها في أكثر من موضع، ليبلغ مجموع ورودها العامّ (106) مئة وستّ مرّات.

تكاد تتّفق هذه المجموعة من الهناهين في مناسبات الأفراح، والأعراس أبرزُها. مع اختلافٍ واضح فيمَنْ تُقال له، وتباينٍ في الملامح والصفات التي تفرض كلمات بعينها تختارها المهنهنة لتصل إلى ما تريد. ومن البديهي أن يتفرّد كلٌّ من العروس، والعريس، وأبي العريس، وغيرهم بهنهونات تخصّهم. ووفقًا لهذا يمكن تقسيم هذه الهنهونات إلى قسمين أساسيين: يختصّ القسم الأوّل بالأعراس، ويأتي القول فيه صريحًا للعريس، ولوالد العريس، وللعروس وأهلها. ويختصّ القسم الثاني بالأفراح الأخرى، فمنه ما يقال للشابّ والصبيّة، عروسين كانا أو غير عروسين، وهذا لا يمنع قوله لأيّ رجل أو أيّة امرأة. ومنه ما يقال لكلّ مَن يحضر الفرح سواء أكان من أهله، أم ممّن يشاركون فيه.

لهذا اقتضت الدقّة العلمية أن تُستقصى هذه الهنهونات المتناثرة على صفحات الموسوعة، وتُجمع وترتّب– لأوّل مرّة – وفق هذا التقسيم، مع الاكتفاء بالإشارة إلى موضع واحد فقط من مواضع ورودها، بحسب نسخة معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب، التي أعدّها للطباعة، ووضع فهارسها محمد كمال في طبعتها الأولى، عام 1408 هـ - 1987 م. وذلك من أجل خدمة القارئ، وتسهيل العودة إليها.

القسم الأول: – ما يقال في الأعراس.

أ- ما يقال للعريس:

- عريسنا الشبّ تحنه اليوم في حيّك يابرج عالي وكلّ الناس في فيّك

سألت ربّ السما يخلّيك لبيك
مع طُولة العمر وللأحباب وْلخيّك [1].

- ياعريسنا بوجْك نور
والخضر إلك ناطور

شْفْد ماردت في الدنيا ندور
مثل عروستك مايتزور [2].

- دوس ياعريسنا دوس على روس
تحت إجريك ذهب مكدوس

ولقا بتدخل عالسراي
بتلقاكَ – والله – ألف محبوس [3].

- ها ها يا ما قالوا!
هاها ياما شوبروا بإيديهن

هاها وقالوا: عريسنا ما بدّو يتجوّز
هاها تجوّز وقلع عينيهن [4].

- فتّح عينك وانظرا
وشوف أحمرا من أصفرا.

وإن كان لك صاحب اتركو
وإن كان لك صاحبة اهجرا [5].

ب– ما يقال للعروس:

- ياستنا يا عروس! قومي تسير فيكي
من بيت أبوكي وأمّك لعلالّيكي

ولْصبّ كاس الهنا والسّعْد بسقيكي
بنت الأجاويد! ما ضاع الملاك فيكي [6].

- بنت الأجاويد! سرير العزّ مرياكي
الورد حتك وهادا القلّ ناداكي

حلف عريسك برتو أنو يلقاكي
ولما شافك صرخ: الله! ما أحلاكي [7].

- رحنا لنجيب العروس
لقيناها جاية

مخطّطة ومحمّرة
ولابسة الملاية [8].

- ملايْكة ما في بأرضنا
وهالعروس منين [9].

---

(1) الموسوعة، 1 : 24 .
(2) نفسها، 4 : 11 .
(3) نفسها، 1 : 65 .
(4) نفسها، 5 : 106 .
(5) نفسها، 5 : 133 .
(6) نفسها، 1 : 26 .
(7) نفسها، 1 : 61 .
(8) نفسها، 1 : 61 .
(9) نفسها، 7 : 190 .

- سبع بقج بقّجت وعنّيتا بالصندوق [1].

ج- ما يقال لأبي العريس:

- بابو عريسنا! يعلّى الله رايتك وسبع خوجات ترقع بقاقاتك
وسبع سواقي ذهب تسقي جنيناتك وسبع كنايز بتحلف: عمّو! وحياتك [2].

القسم الثاني: - ما يقال في الأفراح الأخرى.

أ- ما يقال للشاب (أو للرجل عموماً):

- عيونك السُّود خلّوني انا أغنّي وعيونك السُّود نسُّوني أبي وأمّي
وكنت نايم بأحلى النوم مشّيلي أجا خيالك على عيني وجلّي [3].
- عيونك السُّود أشكيها لشرع الله وخدودك الحمر يخزي العين وماشا الله
كل الزهور بتزهّر كلّ سنة مرّة إلّا خدودك - يا روحي! - دوم مخمّرة [4].
- هاها حصّتلك بياسين وهاها يازهر البساتين
وها ها يا مصحف مطوي وها ها بين السلاطين [5].
- دقّت طبول الفرح من دخلتي عالدار والورد فتّح وفاحت ريحة الأزهار
والوج دورة قمر والخدّ بقدح نار والخصر من دقّتو ما يحمل الزنّار [6].
- ..... وأعيني إيدك بوس [7]

ب- ما يقال للصبية (أو للمرأة عموماً):

- الله واسم الله عليكي والسعد أقبل ليكي

---

(1) الموسوعة، 2 : 148 .
(2) نفسها، 1 : 26 .
(3) نفسها، 3 : 93 .
(4) نفسها، 3 : 328 .
(5) نفسها، 4 : 241 .
(6) نفسها، 3 : 311 .
(7) نفسها، 2 : 31 .

وشيّة مع خرزة زرقا
– الحسّن سبّح وكبّر لمّا جا ليكي [2]
– كل الهنا لك وستّ الحسن تبقى لك [3]
– غزلان ما في ببلدنا والغزالة منين [4]
– قبقابك تزلّي

يزيّوا العين عن عليكي [1].
.....
.....
.....
وفي مشيو بيغنّي [5].

ج– ما يقال لعموم الناس:

– ياأهل الجمع أنا مابعرف أساميكن
– بعدد نبات الأراضي محبّتي فيكن
أفيق بنومي وأناديكن بأساميكن
– يا نجمة الصبح! فوق الدار عليّتي
ندرًا عليّ إذا راحوا على بيتي
– جابوا القدح والباطية
واشربوا يا حبايبي
– هاها صحتين وصحّة
هاها وجلبنة سمسم

أفضالكن فوق راسي وبابش أكافيكن [6].
بعدد نجوم السما عيني تراعيكن
على دروب السلام ربّي يوفّيكن [7].
شميتي ريحة الحبايب وحبيتي وضويتي
لاشعل لهم شحم كلّبي إن خلص زيتي [8].
والنيّة طاهرة وصافيه
بإريتو صحة وعافيه [9].
وهاها والعافية مخّا (نمعيها)
هاها وكلّ سمسمة نخّا [10].

---

(1) الموسوعة، 1 : 142 .
(2) نفسها، 1 : 59 .
(3) نفسها، 4 : 321 .
(4) نفسها، 7 : 217 .
(5) نفسها، 2 : 296 .
(6) نفسها، 1 : 316 .
(7) نفسها، 4 : 37 .
(8) نفسها، 4 : 277 .
(9) نفسها، 4 : 207 .
(10) نفسها، 7 : 144 .

نظرة فاحصة فيما أثبته الأسدي تؤكّد حقيقة مفادها أنّ الأدب المكتوب يختلف عمّا هو شفاهي. فإذا كان الأدب المكتوب إنتاج كاتب معيّن، فإنّ ما هو شفاهي ليس كذلك [1]. وكلّ من يصل إليه يغيّر فيه، تبعًا لطبيعة المشاركين، ولضرورات سياق الموقف الذي يشمل جميع الظروف والملابسات التي تحيط به. وهذا من أبرز الأسباب التي تجعله عرضة للتغيير، فالمهنهنة قد تتغيّر بعض ألفاظها أو عباراتها بتغيّر المناسبات والشخصيات التي تُهنهن لها، وقد تقبل الخلخلة بحسب رغبة المرأة المهنهنة وقدرتها على تغيير بعض الكلمات بالحذف، أو بالإضافة، أو بإزاحة بعضها وإبداله بآخر وفق ما تقتضيه الظروف.

ولدى تدقيق النظر في موطن الاختلاف يتبيّن أنّ المهنهنة تنتقي ألفاظها بدقّة وإتقان لبيان المعنى المراد، حتّى يكاد يؤمن السامع بأنّ هذا الموضع خلقت له هذه الكلمة عينُها، كما في هنهونة (عريسنا الشبّ!...) التي يشهد فيها الشطر الأوّل من بيتها الأوّل – إن جاز التعبير– هذا التغيير المتقن، في: عريسنا **الشبّ!**، وعريسنا **الحلو!**. وفي الشطر الثاني من البيت الثاني، تمرّة: مع طولة العمر وللأحباب **ولخيّك**، وأخرى: **مع خيّك**، وثالثة: **وكمان خيّك**، ورابعة: **معن خيّك**. وكذا الحال في هنهونة: (ياستنا! يا عروس!...) في الشطر الثاني من البيت الثاني: بنت الأجاويد ما ضاع **الملاك** فيكي، و ما ضاع المهر فيكي. وفي هنهونة(حصّنتك بياسين...) في الشطر الأوّل من البيت الثاني: يامصحف **زغيّر**، ويامصحف **مطوي**. وفي هنهونة (جابو القدح...) في الشطر الثاني من البيت الأوّل: والنيّة **طاهرة**، والنيّة **طيبة**، وفي الشطر الثاني من البيت الثاني: وكل سمسمة **صحّة**، وكل سمسمة **نحّا**. وقد تغيّر المهنهنة عبارات كاملة بالدقّة نفسها، كما في هنهونة (بنت الأجاويد!...) في الشطر الثاني من البيت الأول: الورد حبّك **وهادا الفلّ ناداكي**، الورد حبّك **وكما النّسرين حيّاكي**. وفي هنهونة: (يابو عريسنا!...) في الشطر الثاني من البيت الأوّل: وسبع خوجات **ترفع بقنافاتك**، وسبع خوجات **بتطرب في سراياتك**، وسبع **نوبات طرب تضرب**

---

(1) ينظر **خمري محمد**، 1428 هـ – 2007 م– نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال. الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت. ومنشورات الاختلاف، الجزائر ، الطبعة الأولى، ص 436.

بسراياتك، والسعد يرقص ويدبك في سراياتك، والسعد يرقص ويغنّي في سراياتك.
وفي هنهونة (بعدد نبات الأراضي...) في الشطر الثاني من البيت الثاني: وعلى دروب **السلام ربّي يوذيكن**، وعلى **دروب الهنا ألله يهديكن.**

وعلى خلاف ذلك، فقد تشهد الهنهونة تغييرًا غير متقن في بعض حالاته، كما في هنهونة (يا عريسنا! بوجك نور...) التي تتغيّر ألفاظها في الشطر الثاني من البيت الثاني: مثل عروستك **ممكن تشوف**، ومثل عروستك **منين تزور**، ومثل عروستك **مابتزور**. وفي هنهونة (الله،واسم الله عليكي...) في الشطر الثاني: والسعد **كو أقبل ليكي، والسعد هو أقبل ليكي**، والسعد **قبل وجا ليكي.**

ويشير حرص المهنهنة على تغيير بعض مفردات الهنهونة الواحدة إلى احتمال يرتبط بشخص المُهنهَن له، وبالنغمة الموسيقية التي تتّخذ من استبدال بعض الكلمات سبيلًا إليها، دون الإخلال بالمعنى. لكن حين نُلاحظ غلبة التغيير في الشطر الثاني، وأنّ جانبًا من هذه الألفاظ لا يُغني عنه غيره في موضعه من السياق، كما في: **مثل عروستك ما بتزور، وهي عروستك: الستّ بْدور.** يبدو أنّ السبب السابق وحده لا يكفي. وأغلب الظنّ أنّ المهنهنة سلكت هذا المسلك، فاستعملت ألفاظًا بعينها دون سواها، وبالتحديد في عجز البيت كي تتيح لها فرصة الثبات في الذهن. فورودها غالبًا في عجز البيت يقتضي وقفة أطول، وتمثّلًا لإيحاءاتها، وبالتالي لصورها ودلالاتها. وهذا يرجّح الميل إلى الاعتقاد بأنّ المهنهنة الحلبيّة ربّما قصدت ثبات هذه الصور في الأذهان، فهي تمتلك القدرة على التأثير في سامعيها، على الرُّغم من بساطتها وعفويّتها.

ومع التأكيد على الطابع الشعبي الشفاهي الذي يميّز الهنهونة، فإنّ الأسدي عندما نقلها من المجال الشفهي إلى المجال الكتابي أبقى عليها كما هي في اللهجة الحلبيّة الدارجة، وحافظ على خصائصها الصوتية، والصرفية، والنحوية، والمعجمية، والدلالية، كما في قولهن للعريس:

يا عريسنا بوجك نور	و الخضر إلك ناطور
شقد ما ردت في الدنيا ندور	هي عروسك:الستّ بْدور.

وفي قولهن:

هاها يا ما قالوا !	هاها يا ما شوبروا بإيديهن
هاها و قالوا:عريسنا ما بدّو يتجوّز	هاها تجوّز و قلع عينيهن.

وفي قولهن أيضًا:

فتّح عينك و انظرا	و شوف أحمرا من أصفرا
وإن كان لك صاحب اتركو	و إن كان لك صاحبة اهجرا

وفيما يقال للعروس:

قبقابك تزلّي	و في مشيو بيغلّي

ففي المستوى الصوتي[1] تبرز الأصوات الصامتة (چ، وق، وظ) في الألفاظ (بوچك، وقالوا، وشقد، وقبقابك، وانظرا). وصوت (الچيم) بنقاط ثلاث، غاري، رخو، مجهور، شديد التعطّش يجري من غار الفم، أي من حنكه الصلب الذي يلي اللّثة،[2] يلفظه الحلبيّون (تش) مع التشديد، وبهذا النطق لا يعدّ هذا الصوت رخوًا، بل هو مركّب يبدأ شديدًا ثم يصير رخوًا. وصوت (القاف) لهوي، مجهور، مخرجه من أقصى الحلق، وبين أصل اللسان والفم،[3] ويلفظ همزة مفخّمة عند مسلمي حلب، وهمزة مرقّقة عند مسيحيّيها. أمّا صوت (الظاء) فلثوي، مجهور، تلفظه الحلبيّة الدارجة كالزاي المفخّمة دون إخراج اللسان، وقد تُبدل الضادَ به، فتقول في ضابط: ظابط.[4] يضاف إلى هذا ميل الحلبيّين إلى استعمال الصوت الصائت (الإمالة) في الألفاظ (صاحبة، وإيديهن، وعينيهن).

وفي المستوى الصرفي تبدو مجموعة من الضمائر المتّصلة يستعملها الحلبيون في مقابل ماهو موجود في العربية الفصحى، مثل الواو في (اتركو، ومشيو)

---

(1) في الحديث عن الأصوات الحلبيّة، آثر البحث – لأسباب علميّة – أن يستند إلى (موسوعة حلب المقارنة) نفسها التي هي مدار البحث، دون غيرها من الكتب قديمها وحديثها.

(2) يُنظر الموسوعة، الچيم ، 3: 119. هذا الصوت مهموس لعدم اهتزاز الطيّتين (الوترين).

(3) يُنظر نفسها، القاف، 6: 119. مخرج صوت القاف في العربية الفصحى من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى. وهذا الصوت مجهور عند القدماء، مهموس عند المحدثين.

(4) يُنظر نفسها، الظاء، 5: 311.

التي تقابل هاء الغائب. والألف في (انظرا، واهجرا، وأحمرا، وأصفرا) التي تقابل (ها) الدالّة على الغائبة. وهنّ في (إيديهن، وعينيهن) التي تقابل (هما، وهم) للغائبيْن وجمع الغائبين، و(هما، وهنّ) للغائبتين وجمع الغائبات. وثمّة أسماء معرّفة بأل العهدية تحمل دلالة على أمور عهدها الناس وما زالوا يألفونها ويتّصلون بها، نحو (الخضر، والدنيا، والستّ بْدور). وهذه أسماء تمنح الهذهونة بُعدًا تاريخيا يدلّ على التواصل والاستمرارية دون انقطاع. زِدْ على ذلك تعدّد صيغ الأفعال بين الماضي الذي يدلّ على ما كان، نحو: (ردت، وقالوا، وشوبروا، وتجوّز). والمضارع الذي يدلّ على ما يمكن أن يكون، نحو: (تدور، يتجوّز، بيغلّي). والأمر الذي يدلّ على ما يجب أن يكون لدى الحلبيين، نحو: (فتّح، وانظرا، وشوف، واتركوا، واهجرا)

وفي الجانب النحوي تظهر الجمل الفعلية التي تشير أفعالها إلى النشاط والحيوية وتجدّد الحركة، نحو (تدور، شوبروا، تجوّز، وقلع، وبيغلّي). ويكثر في هذه الجمل الإنشاء الذي يدلّ على نداء يوحي بالمحاورة في (ياعريسدا!.. الستّ بْدور)، كما يدلّ على تعجّب إنكاري في (هاها ياما قالوا! هاها ياما شوبروا بإيديهن). ويتجلّى الأمر في عدد من الأفعال لتعزيز ما يجب وقوعه في المجتمع الحلبي على النحو الذي رأيناه آنفًا ، فقد اختارت المهنهنة للصاحب بمعنى الرفيق الملازم فعل الأمر (اتركو) حين حديثها عن جمال العروس، على حين اختارت للصاحبة فعل الأمر (اهجرا)، لأنّ الصاحبة في عرف الحلبيين تعني المرأة التي تعاشر الرجل دون عقد شرعي. أمّا الجمل الاسمية فقصيرة تؤكّد ماهو ثابت في الأذهان، نحو: (بوجك نور، والخضر إلك ناطور، قبقابك نزلّي). وتغيب ظاهرة الإعراب عن اللهجة الحلبيّة، شأن اللهجات العربية الدارجة الأخرى وبعض اللغات السامية التي تظهر فيها بعض حالات الإعراب، لكن ليست بالحال التي عليها العربية الفصحى. فهذه الأخيرة تفرّدت بالإعراب بنظامه الدقيق، ووصلت إلى درجة متميّزة دون سائر شقيقاتها الساميّات، والفضل في هذا موصول بالقرآن الكريم والشعر الجاهلي.

ويظهر المستوى المعجمي فيما تواضع عليه الحلبيون من معانٍ، مثل (نزلّي) التي تطلق سخرية على عقل فلان السّخيف. و(شوبروا) بمعنى أشاروا بأصابعهم.

و(شوف) بمعنى النظر. ولا أدلّ من موسوعة الأسدي على المستوى المعجمي، فالموسوعة كلّها معجم خاصّ باللهجة الحلبيّة.

ويغطي الجانب الدلالي أثر استعمال الكلمات أو ما يسمى بالوحدات الدلالية في توجيه الدلالة نحو المعنى المراد، من أجل فهم طبيعة البيئة الحلبيّة بكلّ أطيافها الاجتماعية، والدينية، والاقتصادية، والسياسية، والثقافية، والطبيعية. ولهذا استفاد استفادة كبيرة من فكرة المجالات الدلالية أو الحقول الدلالية، التي تقوم أساسًا على نتائج الإحصاء للحصيلة اللغوية في الهنهونات الحلبيّة. وعملية الإحصاء لا تمثّل إلّا نقطة البداية، إذ لابدّ من النظر في كلّ كلمة أو وحدة دلالية ضمن سياقها الخاصّ الذي يحدّد معناها بدقّة، ويمنحها أبعادًا دلالية تربطها بدلالة هذا السياق دون سواها من الدلالات الأخرى. وفي هذا الجانب تظهر الحاجة إلى النظر في الاستعمال المجازي الذي يحمل دلالات تختلف عن الدلالات الحقيقية، أو الدلالات الموضوعية المعروفة.

جاء تقسيم الحقول الدلالية منسجمًا مع طبيعة الكلمات المستعملة في الهنهونات، وفي جميع هذه الكلمات تتبّع البحث أكثرها تكرارًا، لأنّ التكرار يشكّل الأساس الموضوعي الذي يقوم عليه التصنيف في حقل دلالي واحد يرتبط ارتباطًا وثيقًا بموضوع البيئة الحلبيّة، على النحو التالي:

1- الإنسان: ويشمل أعضاء جسمه – مستلزماته – صفاته – مجتمعه – فكره.

2- الحيوان: وينفرد به الغزال .

3- النبات: ويشمل الورد – الزهر – نباتات أخرى – الجنينات – البساتين.

4- الطبيعة: ويشمل السماء وما فيها، والأرض وما عليها (مصنّعًا، وغير مصنّع).

5- الألوان.

ومايستدعي التركيز الحيّز الواسع الذي شغله الحقل الدلالي الأوّل (الإنسان)، وطغى به على سائر الحقول الدلالية. وما من غرابة، فالإنسان غاية الحياة، لما

أعطاه الله من الاستطاعة والتمكين، وحين فضّله على سائر مخلوقاته بالمنطق والعقل، وسخّر له كلّ ما في هذا الكون.

وأوّل ما يستوقفنا في هذا الحقل جسد الإنسان وأعضاؤه التي تتضمّن الكلماتُ الدالّةُ عليه إشاراتٍ إلى عناصر اجتماعية ودينية في البيئة الحلبيّة، ومنه: روس – الوج – بوچّك – الخدّ – خدودك – العين – عيلك – عيني – عينيكي – العيون – عيونك – عينيهن – ويلحق بها (انظرا – شافك – تشوفْ – شوفْ) – إيدك – أياديكي – إيديهين – إجريكْ – الخصر – گلبي – شحم. وأكثر هذه الكلمات استعمالاً العين واليد، ثم الوج والخدّ، على اختلاف صيغها جميعًا. فقد رددت كلمة (العين) في سياقات تحمل دلالة على العين الباصرة، كما في: فتّح عيلك وانظر، وعيونك السود، وقلْع عينيهن. وبما أنّ الحسد قرين التميّز والتفوّق فقد دلّت كلمة العين على الخوف من الحسد، كما في: يخزي العين، ويردّوا العين. وإلى جانب دلالة كلمة (اليد) على العضو المعروف، في: شويروا بإيديهن، يبرز إيحاء قويّ بالاحترام في: والدهرْ ما طلّ وبوّس بين أياديكي، وأعبّي إيدك بوس. فحركة الانحناء التي ترافق تقبيل يد الأب، أو الأمّ، أو الجدّ، أو الجدّة، أو بعض رموز الهيبة والوقار تعبير صادق عن الاحترام، الذي يمثّل قيمة اجتماعية نبيلة سادت المجتمع الحلبي آنذاك، وما زالت حاضرة لدى أغلب الأسر. أما كلمتا (الوج، والخدّ) ففي سياقات تُظهر الجمال والنورانية، حقيقة أو مجازاً، في: والوج دورة قمر، بوچّك نور، وخدودك- يا روحي- دومْ مخمّرة. فالحلبيّون كغيرهم يعشقون الجمال ويتغنّون به، ومن معايير الجمال عندهم أن يكون الوجهُ دائريّ الشكل نورانيا كالقمر. والخدُّ دائم الحُمرة، لأنّ الحمرة دليل الصحّة الجسديّة والنفسيّة.

وتتبع هذا الحقلَ مستلزماتُ الإنسان، فمنها الطعام والشراب وما يتّصل بهما، نحو: نخّا – القدح – كاس – نُصبْ – اشربوا – يسقيكي، في سياقات تفيض بمشاعر السرور والسعادة والابتهاج بالمدعوّين، وتسيطر عليها قيم اجتماعية أخرى تمتلك الحلبيّون بها، كالكرم وحسن الضيافة، كما في: صحتين وصحّا، ومع كل سمسمة نخّا، واشربوا ياحبايبي، ونُصبْ كاس الهنا، والسعد يسقيكي.

ومن هذه المستلزمات أيضًا، اللّباس وما يتّصل به من تجميل، وحُليّ، وعطور. وقد جاء هذا كلّه ليعزّز أجواء البهجة ويتمّم صورتها، ومنه: لابسة – الملاية – الزنّار – قبقابك – بقج – بقّجت – بالصندوق – مخطّطة – محمّرة – الملاك – ريحة – فاحت – شمّيتي. وقد حملت هذه الكلمات المختلفة دلالات على البيئة الحلبيّة في بُعديها الاجتماعي والديني. ففي سياق هنهونة:

رحنا لنجيب العروس　　لقيناها جاية
مخطّطة ومحمّرة　　ولابسة الملاية

إشارة صريحة إلى الفصل بين الرجال والنساء في الأعراس الحلبيّة آنذاك، وفق بُعد ديني محدّد. فالعروس المسلمة وغيرها تلبس الملاية (المُلحفة) [1] كي لا تظهر على الرجال، على خلاف بعض الأعراس الحلبيّة اليوم، التي تشهد اختلاطًا بين الجنسين ضمن حفلة عشاء في أحد المطاعم أو الفنادق. ولا يخلو هذا السياق من الدلالة على أهمّية الخطاط والحمرا (الكحل وأحمر الشفاه) اللذين اتخذتهما المرأة الحلبيّة أساسًا في تجميلها، وقد وصل ولَعُها بالإنفاق عليهما حدّ التبذير، حتى قيل: اللّي بتاخدوا السمرا حقّ خطاط وحمرا. وإذا كانت العروس تزيّنها إحدى قريباتها أوالماشطة (المزيّنة) في بيت أهلها سابقًا، فهي تسعى الآن إلى التزيّن في أرقى الصالونات. ومع تفاوت الأجور، فإنّ هذه العملية تكلّف قدرًا من المال لا يُستهان به.

أمّا سياق هنهونة:

سمع بقج بقّجت　　وعلّيتا في الصندوق

فيحمل دلالة على كثرة جهاز العروس التي لم يبخل أهلها به، في مقابل ما كان قد قدّمه العريس من مهر غالٍ، وملاك ثمين يليقان بمكانتها، نحو ما يلاحظ في: ياستنا ياعروس!، ويابنت الأجاويد ما ضاع الملاك فيكي.

ومع تنوّع الصفات الإنسانية الخَلقية والخُلقية، تتنوّع الكلمات وتتعدّد، فإلى جانب الكلمات التي استمدّت قيمتها التعبيرية من عناصر الطبيعة وغيرها، لتؤدّي

---

(1) المُلحفة: الملاءة التي كانت تلبسها كلّ نساء بلادنا، المسلمات و غيرهن. يُنظر الموسوعة، (الملحفة)، 7: 193.

الغرض نفسه في مدح الصفات المحمودة والافتخار بها بطريق المجاز، تبرز كلمات أخرى لتدلّ على هذه الصفات باعتبارها حقائق واقعة، مثل: العروس – هالعروس – ياعروس – عروستك – عريسنا– ياعريسنا– عريسك – الحلو– ياحلى– ماأحلاكي– الحسن – ستّ الحسن– دقّتو/ زقّتو (الحصر) – الشبّ – زغيّر/ مطوي (مصحف) – محبوس – الكرم – الأجاويد – أفضالكن– العزّ– السّلام – الهنا – الهنا (كاس)– يهنّيكن – السّعد – خيالك – حلّني. وطبيعي أن تخلو الصفات الإنسانية ممّا يدلّ على السّيئ منها، فالمقام لا يسمح البتّة بما يستبشعه الحلبيون أو يستهجنونه، مثل قبح المنظر والدّمامة، والدّناءة، والفقر، والبخل، والذلّ، والهوان، والجبن، وغير ذلك. وعلى العكس، فإن المجتمع الحلبي يستحضر ما هو محمود في مقام الفرح بمناسباته المختلفة. ويتجلّى هذا واضحًا في جملة التهنئونات الحلبيّة ضمن سياقات عديدة، منها: الحسن سبّح وكبّر، وستّ الحسن تبقى لك، وكلّ الهنا لك، والله ما أحلاكي، والخصر من دقّتو/ زقّتو ما يحمل الزنّار، وبنت الأجاويد، وسرير العزّ مرباكي، وعريسنا الشبّ، وبابرج عالي، ويعلّي الله رايتك، ويامصحف زغيّر/ مطوي. وغير ذلك ممّا تحفل به التهنئونات الحلبيّة.

ويلحق بحقل الإنسان المجتمعُ وما يتّصل به كالقرابة، والروابط، والطبقات الاجتماعية، وبعض الفئات وغير ذلك. ففي إطار مظاهر البيئة الاجتماعية الحلبيّة يظهر من حيث القرابة: أبي – أبوكي – لبيّك – بابو – أمّي – أمّك – لخيّك – عمّو – بنت – كناين. وجاء من ألفاظ القرابة البعيدة الدالّة على الشمولية، التي تسهم في تشكيل النسيج الاجتماعي: ياأهل – الجمع – الناس. ومن حيث الجنس غلبت الكلمات الدالة على الذّكر، لتوحي بأهمّية دور الرجل في المجتمع الحلبي، الذي خصّ الأب بمركز الثقل دون سواه. وهذا يعني أنّ عوامل ثقافية واجتماعية أسهمت في هيمنة النظام الأبوي على الأسرة الحلبيّة، حيث الدار العربية الواسعة التي توجب على الأولاد البقاء مع أهلهم بعد الزواج. لكن هذا لا يلغي دور الأمّ والأخ، كما يبدو في سياقات: نسّوني أبي وأمّي، ومن بيت أمّك وأبوكي، ويخلّيك لبيّك... ولخيّك، وبابو عريسنا!. أما البنت فلا يرد ذكرها إلّا بصفتها بنت الرجال الأجاويد، أو زوجة الرجل

الابن، كما في: بنت الأجاويد، و سبع كذابين بتحلف: عمّو! وحياتك. وفي السياق الأخير دلالة جزئية تؤكّد مكانة والد الزوج في البيت الحلبي الذي يتشدّد في حبّه للعدد الوافر من الأولاد الذكور.

وورثت وحدات دلالية تبيّن في جانبٍ منها بعض الروابط الاجتماعية، مثل: الأحباب – الحبايب – حبايبي – محبتي – عاشقين – صاحب – صاحبة. فالمحبّة وعناصرها تشكّل رابطًا اجتماعيا بارزًا تقوم على أساسه العلاقات الاجتماعية السليمة بين أبناء حلب، كما في: بعدد نبات الأراضي محبتي فيكن، وشمّيتي ريحة الحبايب، واشربوا يا حبايبي.

وفي هذا المجال تبرز وحدات أخرى، ليدلّ بعضها على طبقات المجتمع، نحو: السلاطين – ياستنا! – الستّ بدور، كما في سياق: يامصحف زغيّر بين السلاطين!، وياستنا! ياعروس!، وهي عروستك: الستّ بدور. ويدلّ بعضها الآخر على المهن التي يزاولها بعض الحلبيّين، مثل: الداطور– بنّا – ابّني – خوجات، في: وأجيبْ بنّا السراي وابّني علاليكن.

ولا يخفى على أحد أنّ الغناء والرقص وما يتّصل بهما، تشكّل الجزء الأكثر بروزًا في حلب، حيث الأفراح والمناسبات. وهذا ما قدّمته الهنيهونات من خلال وحدات دلالية مباشرة وبسيطة لا تقبل التعقيد حتى في الاستعمال المجازي الذي تستند تشبيهاته واستعاراته إلى صور واقعية، من ذلك: الفرح – طرب – تطرب – أغنّي – ويغنّي – بيغنّي – دقّت – طبول. إلى جانب خوجات، ونوبات التي مرّ ذكرهما في حقل المهن. و يُساق كلّ هذا ليزيد المجتمع الحلبي ألقًا في أفراحه، ويمنحه بُعدًا حضاريا آخر، كما في: سبع خوجات طرب ترقع، وسبع خوجات بتطرب، وعيونك السود خلّوني أنا أغنّي، وفي مشيو بيغنّي، ودقّت طبول الفرح.

ويتعلّق بحقل الإنسان الفكر وما يحمل من مضمون ديني، وتاريخي، وثقافي، في إطار البيئة الاجتماعية الحلبيّة التي صوّرتها الهنيهونات أصدق تصوير. ويسجّل البعد الديني حضورًا لافتًا في هذا الجانب. فالحلبيّون صادقو الإيمان، لاتفارقهم كلمة(الله) في حياتهم اليومية منذ الفجر حتى آخر الليل، وهم يعزون كلّ شيء إلى الله

تعالى مهما كانت ديانتهم، مسلمين كانوا أو مسيحيين. وهذا يفسّر تكرار هذه الكلمة أكثر من غيرها، نحو: الله – والله – الله ما... – اسم الله – ماشا الله – شرع الله – ربّ السما – ربّي – بْربّو – مصحف [زهر] – مصحف [مطوي]– بياسين – ملايكة – الخضر – النّية طاهرة – النّية طيّبة – صافية [النية]- سبّح – كبّر – حلّف – بتحلف – نور – ندرا، في: بتّفكّ – والله – ألف محبوس، وألله مالحلاكي، وحلف بربّو، وبتحلف: عمّو ! وحياتك، والحسن سبّح وكبّر، وملايكة ما في بأرضنا. وقد تمثّل أبناء حلب هذا البعد الديني الإيجابي حتى غدا سلوكًا يوميا، تلهج ألسنتهم بكريم جُمَله ونبيل ألفاظه على هيئة عبارات سلوكية سائرة، نحو: الله واسم الله عليكي، وورِبّي يونّيكن، ويامصحف مطوي، وحصّنتك بياسين، والخضر إلك ناطور، والنيّة طاهرة / طيبة / صافية. يضاف إلى هذا كلّه تكرار العدد سبعة الذي يرمز إلى عناصر دينية متعدّدة ورد ذكرها في القرآن الكريم،من مثل: السموات السبع، والسنوات السبع، والسنابل السبع، والبقرات السبع، وغير ذلك . فقد جاء هذا العدد خمس مرات في الهنهونات الحلبيّة مع اختلاف المعدود، في: سبع بفَج، وسبع كنابن، وسبع خوجات، وسبع نوبات، وسبع سواقي. وما يؤكّد هذا البعد الديني بعض الأفراح التي تحييها نوبات الذّكر التي تضرب الدفوف في إطار ديني، على نحو مغاير لما تفعله خوجات الطرب والغناء التي ترقع. وربّ إيماءة خفيّة إلى عدد أيام الأسبوع السبعة التي يستمر فيها الاحتفال بالعرس الحلبي.

وتمثّل العبارات السلوكية السائرة، خلاصة الفكر الإنساني في البيئة الاجتماعية الحلبيّة. وهذا يلتحب – إلى جانب ما ذكر آنفًا – على عناصر ثقافية تاريخية، في: الخضر إلك ناطور. أو أسطورية، في: ستّ الحسن، والستّ بدور، ونجمة الصبح. أو شعبية، في: شبّة مع خرزة زرقا، وبخزي العين، وبرتّوا العين، وصحتين وصحّا، ويا ربتو صحّة وعافية، وأفضالكن فوق راسي، وبايش أكافيكن، وعيني تراعيكن، ويا روحي، وشوبروا بإيديهن، وقلع عيونهن.

وتنفرد بالحقل الدلالي الثاني (الحيوان) كلمة الغزالة، وجمعها الغزلان في إشارة الى جمال العروس الدائر ضمن سياق المجاز والصورة الفنية، في: غزلان ما في ببلدنا وها لغزالة منين ؟.

ويختّص الحقل الدلالي الثالث بالنبات الذي غلبت عليه ألفاظ: الورد – والورود – زهر– الأزهار – الزهور– بزهرو– الفلّ – النسرين – سمسمة – سمسم. ويلحق به: حنينية – حنيناتك – البساتين – فيك.

ومع ملاحظة الدلالات الحقيقية المستمدّة من واقع هذه العناصر الطبيعية التي اعتاد الناس في حلب أن يلجؤوا إلى سحرها، فإنّ دلالات مجازية تجلّت في عناصر أخرى امتزجت مع من يُهنهن له في سياقات مختلفة، فقدّمت تصويرًا حسّيا تجسّد فيه الإنسان على هيئة صوت مسموع، في: وهادا الفلّ ناداكي. أو حركة مرئية، في: كما النّسرين حيّاكي. أو افعال محسوس، في: الورد حبّك.

ويتآزر الحقل الدلالي الرابع (الطبيعة) مع ماسبقه في تشكيل البيئة الحلبيّة، ويضمّ وحدات دلالية تخصّ عناصر الطبيعة المصنّعة، وغير المصنّعة. قسم منها يدلّ على السماء وما فيها، نحو: السما[ربّ]، السما[جوز]، نجمة[الصبح] – نجوم – قمر، في: بعدد نجوم السما عيني تراعيكن، و سألت ربّ السما. وما يلاحظ هنا أنّ دلالة بعض مظاهر الطبيعة الموضوعية ائتلفت بقوّة مع الأثر الديني ، فلم تعد السماء تبعًا يخصّ القمر والنجوم فحسب، بل هي سماء الرّب.

ويدلّ قسمها الآخر على الأرض وما عليها، ومنه ألفاظ تخصّ الأمكنة والمواضع، نحو: بأرضنا – الأراضي – ببلدنا – دروب – حيّك – برج. ومنه البيوت وأنواعها وما يتّصل بها، نحو: بيت – بيتي – الدار – عالدار – بقاقاتك – السراي – بسراياتك – عالأليكي –علاأليكن – مرياكي – سرير. والمعادن أيضاً ممّا على الأرض، مثل: دهب – دهب [سواقي]. وكذا ما يدلّ على المياه، مثل: سواقي – تسقي.

وغنيٌّ عن البيان أنّ الطبيعة لم تقف عائقًا قطّ أمام فنون القول الشعرية والنثرية، على اختلاف الزمان والمكان، سواء أكانت هذه الفنون كتابية أم نثرية.

والهنبونة الحلبيّة واحدة من هذه الفنون، ولديها ولَع باستدعاء العناصر الطبيعية الملائمة، إذ تشارك السماءَ وما فيها، والأرضَ وما عليها أهلَ الجمع فرحتهم، وتُسهم في بناء صورة فنّية يغلب عليها الطابع الحيوي. فبهداية الله يبدأ الحفل، وبحمايته يستمر، وبحفظ ربّ السماء ينتهي. وفي هذه الليلة المباركة تغدو نجوم السماء رمز الرعاية الإنسانية التي لا تنتهي عند حدّ.

ولم يفت الفرح أجمل النجوم وأقواها ضياء. فنجمة الصبح، أو مايُسمّى بكوكب الزُّهرة الذي يظهر مع غروب الشمس وشروقها، تشمّ رائحة الحبايب فتطلع لتحيطهم بضيائها، في سياق هنبونة:

يا نجمة الصبح فوق الدار عليّتي شفيتي ريحة الحبايب وجيتي وضويتي

وربّ إيماءة خفيّة إلى العروس التي تتجلّى بحسنها وجمالها. وإذا كانت نجمة الصبح رمز جمال العروس ليلة زفافها، فإنّ القمر رمز جمال العريس في الليلة ذاتها. ويكاد يؤمن المتلقّي أنّ هذا العرس إنّ هو إلّا عرس سماوي، عريسه القمر وعروسه نجمة الصبح، مكانه السماء، وتوقيته الليل.

ولو رحنا نتتبّع عناصر الطبيعة على وجه البسيطة، لرأينا أنّ الأمر لم يختلف كثيرًا عن سابقه. فالأرض وعند نباتاتها اللامحدود رمز المحبّة بين الناس. والأرض أيضًا تفتقد الغزلان ما خلا غزالة واحدة هي العروس، والدروب تسير بالأحباب إلى الهناء والسلام، والحيّ يعجّ بالمحتفلين، وقناق والد العريس يشهد الغناء والطرب، والرقص والدبك، وضرب الدفوف ورفع الخوجات، ودقّ الطبول. وكذا حال سراياته. أما البيت فيضمّ العروس بين جنباته قبل عرسها، والعلّيات تأويها بعده، والبرج العالي يحتفي بالعرس، والذهب مكدوس تحت رجلَيْ العريس، وسواقي الذهب تسقي جنينات أبيه، في سياقات: بعدد نبات الأراضي محبتي فيكن، وغزلان ما في بأرضنا وها الغزالة منين، وعلى دروب السلام ربّي يودّيكن، وعلى دروب الهنا أنا بهديكن، ونحنه اليوم في حبّك، وبابرج عالي، وسبع خوجات ترفع بقناقانك / بسراياتك، وقومي تسير فيكي من بيت أمّك وأبوكي لغلاليكي، وتحت إجريك ذهب مكدوس، وسبع سواقي ذهب تسقي جنيناتك.

ويشمل الحقل الدلالي الخامس ألفاظًا دالّة على الألوان، نحو: أحمرا – الحمْر – محْمَرّة – محمَرّة – أصفرا – زرقا. وما يلاحظ هنا غلبة اللون الأحمر الذي يحمل دلالة على التزيّن والتجميل في: وشوف أحمرا من أصفرا، ومخطّطة ومحمَرّة. وعلى جمال الخدّ في: خدودك الحمر، وإلّا خدودك- يا روحي- دوم محْمَرّة. وربَّ إيحاء خفيّ بالبهجة والإثارة في هذه الليلة. وهذا لا يعني أن تستمر مظاهر البهجة في التعبير عن مشاعر الفرح. فقد نتوقّف عرضًا عند اللون الأزرق الذي يحمل دلالة جزئية على الخوف من الحسد، ضمن سياق: وشيّة مع خرزة زرقا يردّوا العين عن عينيكي، وهذا لا يدلّ على تشاؤم – كما هو معروف عن دلالة اللون الأزرق – بقدر ما يدل على الواقع الذي يعيشه الحلبيون، وعلى تأثّرهم ببيئتهم الاجتماعية الشعبية التي تربط بين مظاهر البهجة، والنظرة الجادّة إلى الحياة التي تمثّل القيمة العليا.

وفي الحقول الدلالية عمومًا، ومن خلال تتبّع مفرداتها، ظهر قليل منها للدلالة على البيئة الاقتصادية، نحو ما ورد في حقل الإنسان من المهن البسيطة التي يزاولها بعض الحلبيين كالناطور، والبنّاء، وخوجات الطرب. وما ورد في حقل النبات كالبساتين في إشارة إلى زراعة الخضار والفواكه. زِدْ على ذلك المعدن الثمين الذهب الذي ورد في حقل الطبيعة في إشارة الى حال اقتصادية ميسورة يتمتّع بها مالكه، على حين غابت التجارة وبعض الصناعات التي تشتهر بها حلب.

وتكاد تخلو هذه الحقول ممّا يدلّ على البيئة السياسية، ما خلا بعض المفردات كالسلاطين والسراي، والرايات التي فُرّغت من مضمونها السياسي لتوحي بالرفعة، والجاه، والشجاعة في سياق الفخر والمديح. ولا خفاء أنّ النساء _في أغلب الأحيان _ قليلات الاهتمام بالسياسة. والأهمّ من هذا كلّه، أنّ مقام الفرح لا يلائمه الحديث عن السياسة، ولا يسمح بالشعارات السياسية أو ما يقرب منها.

وخلت الحقول الدلالية تمامًا ممّا يشير إلى البيئة العلمية، ومردّ ذلك إلى أنّ الهنهونات تخصّ النساء، وأغلب الظنّ أنّ الغالبية العظمى من هؤلاء غير متعلّمات،

مُنعن من التعلّم في المدارس، أوغيرها من المؤسسات العلمية، عدا (الخوجة) [1] التي تتولّى تعليم الأطفال إذ ذاك. وما هو معروف أنّ هذه المهنهونات ورثتها النساء عن أمهاتهن وجدّاتهن اللواتي عشن في زمنٍ، إذ الحظر العلمي أشدّ عليهن. على خلاف ما يشهده عصرنا الحالي الذي كثرت فيه المتعلّمات، والمتخصّصات، والباحثات اللواتي أفدْن من انفساح المجال أمامهن، ومن تقدّم العلم، وتطوّر أسباب المعرفة، فلم يستعصِ عليهنّ علم من العلوم اليوم.

وجملة القول: إنّ المقدرة الكامنة في عقل المهنهنة الحلبيّة استطاعت أن تعبّر عن تركيبة المجتمع الحلبي، وأن تحافظ على الذاكرة الجماعية قدر الإمكان، من خلال نسق ثابت من معاني الفرح والفخر والمديح، فألبستها ثوب الحقيقة الواجب وقوعها، من أجل تثبيت الصفات المحمودة، والمثل العليا، والقيم الإنسانية السامية. وهذا يعني أنّ ثمّة وظيفة مهمّة تؤدّيها المهنهونات الشعبية الحلبيّة التي تشكّل جزءًا لا يستهان به من البناء الثقافي، فهي تعكس الوجود الذي يتضمّن صورًا من الواقع البيئي بكل علاقاته، ودقائق قيمه.

---

(1) الخوجة: يطلقها الحلبيّون على معنيين: يُقصد بالأوّل الشيخة التي تعلّم القرآن للأولاد. وبالثاني رئيسة جوقة الغناء والطرب، ومجازًا جوقة الغناء والطرب كلّها. وهي هنا بالمعنى الأوّل.

المصادر والمراجع

1-**ابن جنيّ** أبو الفتح عثمان، 1371هـ - 1952م- الخصائص. تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة.

2-**ابن مكّي** الصقلّي، 1386هـ - 1966م- تثقيف اللسان وتلقيح الجنان. تحقيق عبد العزيز مطر، دار المعارف، مصر.

3-**ابن منظور**محمّد بن مكرم، 2007 م- لسان العرب. دار صادر للطباعة والنشر، لبنان، بيروت، الطبعة الرابعة.

4-**الأسدي** محمد خير الدين، 1408هـ -1987م - موسوعة حلب المقارنة. أعدّها للطباعة ووضع فهارسها محمد كمال، معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب، حلب، الطبعة الأولى.

5-**أنيس** إبراهيم، 1965 م- في اللهجات العربية. مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، الطبعة الثالثة.

6-**بوقرة** نعمان، 1430هـ - 2009 م- الألسنية اتجاهاتها وقضاياها الراهنة. عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، الطبعة الأولى.

7-**الجاحظ** عمرو بن بحر، 1367هـ - 1948 م- البيان والتبيين. تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى.

- 1413هـ - 1993 م- البخلاء. تحقيق علي الجارم وأحمد العوامري، الدار العالمية، بيروت، الطبعة الأولى.

8-**خمري** محمد، 1428هـ - 2007 م- نظرية النصّ من بنية المعنى إلى سيميائية الدالّ. الدار العربية للعلوم، ناشرون، بيروت، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى.

9- **الزّبيدي** محمّد مرتضى، 1390هـ- 1970 م- تاج العروس من جواهر القاموس. تحقيق عبد العزيز مطر، مراجعة عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، وزارةالإرشاد ، سلسلة التراث العربي.

10-**السعران** محمود، 1958م-اللغة والمجتمع رأي ومنهج. المطبعة الأهلية، بلغازي.

11-**عبد المنعم** عبد العال، 1974 م- معجم الألفاظ العامّيّة. مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية.
12-**الفراهيدي** الخليل بن أحمد، 1426هـ- 2005 م- العين. دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، بيروت، الطبعة الثانية.
13-**الفيروز آبادي** مجد الدين، 1429هـ- 2008 م- القاموس المحيط. رتّبه ووثّقه خليل مأمون شيحا، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، بيروت، الطبعة الثانية.
14-**لعيبي** هادي نهر، 2009 م- اللسانيات الاجتماعية عند العرب. عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، الطبعة الأولى.
15- **مجمع اللغة العربية(القاهرة)**، 1392هـ- 1972 م- المعجم الوسيط. دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية.
16- **وافي** علي عبد الواحد، 1971 م- اللغة والمجتمع. مصر.

The Environment in the Aleppine Non-tangible Heritage:

A Semantic Study of Kheireddin al-Asadi (Nuptial Chants as a Model)

Dr. Swiess Al Batman,

Faculty of Arts & Humanities,

Dept of Arabic, University of Aleppo

Abstract

This research is based on an applied semantic approach dealing with an important issue that has ubiquitously appeared in all 7 vols. of Kheireddin al-Asadi's *Aleppo Comparative Encyclopedia*. It is an issue which was not given due attention by any other creative authors before al-Asadi, namely the Aleppine nuptial chants. Since the aim of this research is to explore the secrets of the Aleppine Non-tangible cultural Heritage that is written in the vernacular, modern linguistic awareness requires a re-reading of this encyclopedia based on the findings of modern linguistics with its various theories, such as the theory of semantics which depends, to a large extent, on statistics, in addition to other theories. Since this research is aimed at studying the Aleppine environment in its social, religious, economic, cultural, and political dimensions, through a verbally transmitted folkloric genre, namely the nuptial chants, it becomes necessary to look at the Aleppine vernaculars which embraced this genre. The intention is to have a look at this genre through a descriptive semantic approach as well as an applied analytic one.